جرمينال

لإميل زولا

بقلم الأستاذ أحمد رشاد

١ ــ الروائى المؤرخ لعصره :

من المسلم به ، كما يؤكد الكاتب الاشتراكى « بول لوى » (Paul Louis) ان مؤلفات الذين اتخـذوا التاريخ مهنة ، لاتعطينا فكرة كاملة عن العصر الذى تناولوه • ذلك لانهم ليسوا هم وحدهم الذين يكتبون التاريخ • فلن نقف على المجتمع الاغريقى مثلا ، الا وقفة ناقصة اذا اكتفينا بقراءة مصنفات « توسيديدس (Thucydide) ، ولن نلم بالعالم الرومانى الماما تاما لو اطلعنا على ماتركه « تيتوس ليفيوس » Tite-Live أو « تاسيتوس » Tacite • اذن فلا بد لنا ، لكى نكون فكرة صحيحة دقيقة عن ملامح العصور القديمة ، ونحصل على صورة لها معبرة ومقنعة ، ان نقرأ ، الى جانب مؤرخى تلك العصور ، ما كتبه الفلاسفة والشعراء وكتاب المسرح والخطباء الذين عاشوا خلال تلك العهود نفسها •

واذا كان المؤرخون القدامى قد صوروا لنا الأحداث ، ووصفوا المعارك التى قامت بين أهل «سبارطة» و «أثينا» ، أو الحرب الأهلية فى زمن القياصرة ــ فانهم اغفلوا التفاصيل المتعلقة بجشع طبقة النبلاء ، وآلام طبقة العبيد ، أو بؤس الطبقة الدنيا • انهم لم يوفوا التاريخ حقه بالنسبة لسلوك الاغريق والرومان ، وحول أرديتهم وطعامهم ، وكيف كانوا يمضون أوقات فراغهم ، ويؤدون أعمالهم ، وينصرفون فى صفقاتهم ويدافعون عن مصالحهم •

وما ينطبق فى هذا المجال على العصور الخوالى ، ينطبق أيضا على العهود القريبة منا • فكم من مؤرخ نابه كلمنا بذمة وأمانة وجدارة ، عن أحداث خطيرة وقعت مثلا فى فرنسا ، خلال القرن التاسع عشر • ولكن اذا أردنا التغلغل فى بيئة الفرنسيين فى تلك الفترة ، وأردنا الوقوف على همومهم ومشاغلهم ، وعلى آمالهم ومطالبهم ، وتسلياتهم فى أوقات الفراغ ، اذا أردنا ان نلم بتطور البيئة ، أو بالنظم الاجتماعية ، وبموقف

الحكومة من الاضرابات ومن النقابات ومن البطالة، أو حياة رجال المال أو المشتغلين بالتجارة ، أو الموظفين ، أو حالة الأدباء والكتاب والفلاحين وأهل الحرف ، ولا سيما طبقة العمال ازاء النمو الاقتصادى والتقدم الصناعى ـ فمن الطبيعى أن نلجأ الى « الكوميديا الانسانية » (La Comédie Humaine) لبلزاك (Balzac) ، والى « روجون ماكار » (Rougon-Macquart) لاميل زولا •

واذا قرأنا هذين الروائيين الكبيرين المعاصرين لقرن التاسع عشر ، أو بالأحرى ، هذين الاديبين الواقعيين المتبحرين فى علم الاجتماع اللذين تركا مؤلفات قيمة بقدر ما هى ضخمة افرغا فيها عبقريتهما ، لرأينا أحوال المجتمع الفرنسى فى عهد « لوى فيلب » وتحت حكم الامبراطورية الثانية ، تمر أمامنا كاملةمستوفاة : اذ نشعر أننا نشارك قلق ومخاوف وآمال وأحلام الطبقة البورجوازية التى تريد الاحتفاظ بالسيادة ، أو طبقة العمال المكافحة من أجل نيل حقوقها •

كان بلزاك وزولا الشاهدين البصيرين بأحوال زمانهما فى ايجابية تامة • لقد أمعنا فى وصف المجتمع الى حد يجعل تراثهما خالدا على مر القرون ، بل وثيقة قيمة واسعة المدى • واذا كنا نأمل الكلام عن بلزاك فى القريب العاجل ، فاننا نخص اليوم بالدراسة ، الرجل الذى قال عنه « اناتول فرانس » انه « كان يمثل فترة من الزمن للضمير الانسانى » •

٢ ـ تخصية زولا :

لقد صدق « جان جوريس » (Jean Jaurès) عندما قال عن زولا انه « شاعر الثورة الاجتماعية » ذلك لأنه سيظل أول كاتب فرنسى أدخل الشعب ، فى مادة الأدب ، فى بلده • أنه محرك الجماهير الفذ الذى لايجاريه أحد فى وصفهم وهم يسعون الى كسب لقمة العيش ، أو فى رغبتهم فى الافلات من قبضة الفقر ، والصعود الى سطح الأرض المنير ، واستعادة عزتهم وكرامتهم •

واذا أغفل هذا الأديب فى بعض الأحيان ، الجماعات ليصف لنا شخصا معينا ، فانه لايتعهده بالدراسة الا بالقدر الذى يساهم فيه هذا الشخص فى حياة المجتمع • ويبقى هذا الشخص ، آخر الأمر ، مرتبطا ارتباطا وثيقا بالجماعات التى تحيط به ، حتى اننا نتساءل : هل الفرد هو الذى يتجسد الجماعة بارادته ، أم الجماعة هى التى تمتص الفرد بكثرة ناسها ؟ •

وليس الأدب فى نظره مجرد تسلية لقتل الوقت ، وانما يجب أن يوضع فى خدمة الحقيقة والعدالة ، وأن يهدف الى سعادة الانسانية ، وان يرتبط ارتباطا كاملا بقضية تحرر البروليتارية •
ويقول زولا فى كتابه « الدكتور بسكال» (Le Docteur Pascal) لايوجد الا شىء واحد يستطيع الافلات من اطار القبح والمهاوى المحدقة بالحياة : الوثبة نحو العدالة والرأفة » •

وصرح فى مقال له تحت عنوان « العدالة » : « اننى كاتب حر له ولع بشىء واحد فى الحياة الا وهو السعى وراء الحقيقة • ولقد كافحت من أجلها فى جميع الميادين » • وساق الحديث عن الفلاح فى كتابه « الأرض » بقلم ملوء الأمل فى المستقبل : « هدىء من غضبك يارجل الحقل ،

فساعة النصر سوف تدق قريبا ويسجلها التاريخ ! » .

وبصفته ديموقراطيا صريحا ، فانه لا يتزلف الى الشعب : أنه يريد اظهار امارات الجهل وخطورة الانقسامات ونتائج الرعونة الوخيمة ، ومضار الخمور.وهو يحطم ماتدخله البورجوازية من أوهام وخداع وأكاذيب فى روع جماهير العمال حتى لايتخلصوا من نير العبودية ولا يرفعوا رءوسهم ، ولا يتنبهوا للقوة التى يمثلونها .

والواقع أن زولا تناول الدراسات الاجتماعية أكثر من الروايات ، بصفتها « وثائق انسانية » يفضح بواسطتها مجتمعا مقبلا على السقوط والتفكك ، مجتمعا أنانيا جشعا تافها لايعرف الرحمة ، تعيش فيه أرستقراطية متعطلة ضارة ، لاهم لها الا السهر على مصالحها الخاصة ، ولا تنظر بعين العطف الى بؤس الفقراء .

وزولا رجل عمل أكثر منه رجل جدال فى المسائل الفلسفية أو المتافيزيقية انه يؤكد أن موهبة التفرس فى الأمور تفضل موهبة التخيل والتصور ، والاديب الذى يشعر أن من واجبه الحكم بصراحة على المشاكل التى تتعلق بمصير البشر ، لاتهمه موهبة الخلق والابداع ، بقدر مايهمه الواقع ، ولا يهمه المجهود المبذول فى سبيل نصر رخيص ، وانما يهمه الشعور بلذة الاقناع . وتفوح من ثنايا مؤلفات زولا رائحة قوة الايمان بالعمل والعلم والحياة نفسها .

وأن تعهد بألا يكون كاتبا أخلاقيا ، وان أطلق على نفسه بكل تواضع ، بأنه «مسجل لفترة من الزمن» ، أو شبه نفسه بجراح «يكتفى بتشريح الجثة الآدمية » ــ فانه لم يخف ازدراءه للرأسماليين ، ولا ميله لطبقة العمال . ولذلك كشف عن الدسائس الخسيسة ، وعن تفشى الرشوة فى الأوساط القيادية خلال حكم نابليون الثالث . ومن أقواله فى مذكراته الخاصة بروايته المسماة « غليان القدر » (Pot-Bouille)
« ان الكلام عن البورجوازية معناه توجيه أعنف اتهام ضد المجتمع الفرنسى » .

وحاول فى المؤلفات التى كتبها فى أخريات أيامه أن يتكهن وأن يتوقع قيام مجتمع أفضل . ودون انتمائه الى حزب ما ، فانه جعل من نفسه ـ نظرا لوجود قلبه ناحية اليسار ـ بشيرا للاشتراكية ، باعلان الحرب جهارا على ذوى السلطان من الرأسماليين ، وذوى الجاه من الارستقراطيين .

***

كم من سخافات وأخطاء وأكاذيب روجت عن مؤلفات هذا الرجل ! ذلك لأن حساده تكلموا عنها ، اما دون قراءتها بتعمق ، واما عن سوء نية واضح . ومما قالوه عنه :

(أ) أن زولا قد سخر من الناس عندما مزج العلم بالأدب .

(ب) زولا رجل اباحى ، ورواياته مدنسة بالأدب المكشوف .

(ج) زولا لايعرف شيئا عن طبيعة البشر ، وأشخاصه اما دمى فى يده ، واما غلاظ أو مجانين .

(د) زولا رجل ملهم أو صاحب خيالات يشوه كل مايراه .

ولنترك أولا زولا يدافع عن نفسه ويقول كلمته فى هذا الهجوم الهدام :

« لابد من قراءة رواياتى وفهمها وادراك مضمونها فى مجموعه ، قبل الحكم على شخصى وعلى مؤلفاتى بطريقة سطحية قبيحة بغيضة » •

ونعترف بدورنا ـ مع النقاد النزهاء المحايدين ـ أن زولا قد أخطأ فعلا بخلطه العلم بالأدب ، حيث دعم علم النفس بالفسيولوجيا : فهو يرجع تحليل الأخلاق الى تحليل الطبائع والأمزجة ، ولا يرى فى الانسان الا أحاسيس وغرائز ، وهو يجعل أفكاره ومشاعره وتصرفاته خاضعة لحركات جزئيات المجموع العصبى•ويخرج بالنتيجة التالية: بما أن المخ والخلايا الحية تحدد سلوك الأفراد، فيجب استكشاف التركيب الفسيولوجى اذا أردنا ودراسة الحب والغيرة واليأس والحقد وجنون القتل . . الخ . وزولا يخلط بين التجربة والافتراضات التى تدور فى خياله : فأعمالنا مهما كانت معينة فهى غير مشروحة بقدر كاف بواسطة الافتراضات العلمية ، وبناء عليه فان علم النفس ليس بالضرورة فرعا من الفيزيولوجيا كما يميل كاتبنا الى اعتقاده •

وعذره ، ان الحماس الزائد كان يجر فى عصره ، ذوى الطبائع الحامية كزولا ، الى العلم الذى كانت فيه تعقد عليه الآمال لبناء المستقبل•

من الخطأ ومن الادعاء الباطل اتهام زولا بالاباحية : فهو يسمى الأشياء بمسمياتها ولا يلجأ الى فن التورية • وكان يعلن للذين اتهموه بالرذائل بأنه يرمى بأعماله الى أهداف اصلاحية على عكس مافهموه • وكان يتألم من تشبيه كتبه بالروايات الداعرة أو القصص الخليعة التى يمقتها • ومع كل فكيف يمكن اقامة حد فاصل بين ماهو فاحش وما هو غير فاحش فى ميدان الأدب ؟ هل يمكن اليوم منطقيا اعتبار رواية«مدام بوفارى » (Madame Bovary) لفلوبير و « ازهار الشر (Les Fleurs du mal) لبودلير ، من الروايات الخارجة ، مع أن هاتين الرائعتين اعتبرتا مخلتين بالآداب عند ظهورهما •

من الخطأ ومن الادعاء الباطل اتهام زولا بأنه يجهل كل شيء عن الطبيعة البشرية ، وان أبطاله عبارة عن دمى يحركها كيف شاء ، أو أنهم غير طبيعيين • فقد شغله علم الوراثة ، ويعتقد تماما فى تأثيرها: فهى تستطيع ان تتنكر تحت صبغة المدنية، ولكن سرعان ماتظهر من جديد رغم شدة القيود الاجتماعية وما اعتاده العرف ، ومع كل ، فزولا لايمعن فى ايقاظ الشهوة الكامنة فينا ، ولا يصرح بأن النصر فى هذا العالم ، يكتب آخر الأمر ، للبهيمية على الروحانية • ويذكرنا فى كثير من الأحيان بمستلزمات الحياة الطبيعية ، وبرجاحة العقل الذى يخفف من وطأة الاندفاعات .

من الخطأ ومن الاعاء الباطل اتهام زولا بأنه صاحب خيالات وتصورات ومشوه لكل مايراه • فسبق ان قلنا كيف كان يعتبر الملاحظة أهم من التخيل • وبصفته كاتبا مجدا ذا ضمير ، متشبعا بالايمان بالعمل ، مرتبا ومنظما ، فهو يعد بعناية فائقة ، ملفاته ، ويجمع بدقة مستنداته من واقع البيئة التى يصفها ومن الأشخاص الذين يقدمهم لنا • واذا منح هذه الأشخاص عضلات وأعصابا أكثر من عقل وتفكير ، وأخضعهم للأحاسيس أكثر من الشعور ، فان ذلك لا ينقص فى شيء موهبته لأن كل هذا يتناسق وينسجم مع طريقة العمل التى اختارها لنفسه •

فهو يقرأ الكثير من الكتب الفنية ليكون دائما ملما بالمهن التى يمارسها عماله : وهو يطلع على الأبحـاث الطبية ليقف على مختلف مراحـل الامراض التى تصيب ابطاله وتنهك قواهـم • ولكن نزاهته الفكرية لاتقف عند هـذا الحد : فهو يتحسس ويختبر مايريد الكلام عنه • فمثلا قبل أن يؤلف « جوف باريس (Le ventre de Paris) مر فى الاسواق دون أن يترك ركنا من أركانها ، فى مختلف ساعات النهار ، ولا سيما بالليل وقت وصول الخضر واللحم والسمك • وقبل أن يتناول « الأرض (La terre) اتصل بالفلاحين فى قرية « لابوس » (La Beauce) واختلط بالجماهير المترددة على الأسواق ، وتابع المسـاومة فى أثمان بيع الخيـول ، ووقف على الاقتصاد الريفى • وقبل ان يكتب « سـعادة السـيدات » (Au bonheur des dames) اهتم بتاريخ بيوتات الأزياء الحديثة ، وبحيـاة وأخلاق البائعات ، وراح يلاحظ الزبائن فى أيام العرض وأيام التصفية ، وقبل أن يحرر «الحانة» (L'Assommoir) كان يتمشى فى الشوارع والطـرقات ، ويغشى الخمارات وأماكن اللهـو والرقص ، والفنادق ، لانه ينوى أن يجعل من كل هذا اطارا لروايته عن أخطار ومضار المشروبات الروحية • ونستطيع أن نضرب أمثالا أخرى عن دقته فى البحث عن الحقيقة ، وعن ضميره الحى •

ويمكن ارجاع مؤلفات ادبنا كلها ـ كما لاحظ « جورج شنفير Georges Chennevière، الذى تناول زولا بالدراسـة والتحليل العميقين ـ الى الفكـرة التى هيمنت على روايته المسـماة « الدابة البشرية » (La bête humaine) : « فجميع اشخاصها تتسـلط عليهم فكرة ثابتة تجعلهم لايلاحظون مايدور عن يمينهم أو شمالهم، فينتهى بهم الأمر الى التصادم ووقوع الكوارث ، لأنهم يسيرون بدافع أهوائهم فى خطوط مستقيمة ومتوازية كقضبان السكة الحديدية التى « تمر عليها القوة الميكانيكية للقطارات » •

ولقـد قرأ زولا لكثير من العلماء والروائيين وتأثر بهم ، أمثال : اوجست كونت ، وكلود برنار والدكتور بروسـبير لوكا ، وبلزاك ، وفلوبير ، والاخوين جونكور ، وسوف نعود فى سـياق دراستنا الى الكلام عن بعض هؤلاء • ولكن من العدل أن نخص بالذكـر الفيلسـوف المؤرخ « هيبوليت تين » (Hippolyte Taine) حيث يسر الينا زولا : « لقد استخدمت فى كتبى نظريته فى الوراثة وفى البيئات وطبقتها على رواياتى » • كان « تين » أول من استعمل كلمة « المـذهب الطبيعى » (Naturalisme) فى مقال له مدح فيه بلزاك ، فالتقطها زولا وأقام عليها مذهبه• ولكن هذا المذهب كان معروفا قبل أن يتكلم عنه « تين » حيث كان يعبر عنه بطرق مختلفة حسب جانبه الفلسفى أو الجمالى أو العلمى • واسترعى جانبه الأخير أنظار زولا باعتبار «المذهب الطبيعى» وصفا للحياة مبنيا على الملاحظة ومتمشيا مع المناهج العلمية • ففكرته اذن تتلخص فى ادخال البحث العلمى فى الرواية •

وباتباع هذا السبيل بالذات ، أعد زولا مخطط روايته الكبيرة « روجون ماكار » متناولا فيها المنجم والكنيسة والمعمل وبيوتات الأزياء والمصنع والحانة والمصرف ، وحيث يرينا فيها رجل الأعمال فى مكتبه ، والقروى فى أرضه ، والرسام أمام

لـوحته ، والراهب فى محرابه ، والبناء فوق السقيفة ، والغانية فى دارها ترفل فى الحرير •

ومن العجيب ان نلاحـظ التناقض بين زولا الكـاتب الخجـول الحساس ، وبين الدهاة من الساسة أو رجال المال الجشعين الذين يصورهم لنا ، بين حياته العفيفة الرتيبة وبين المشاحنات والفتن والدماء التى تسيل فى أهم رواية له ، ونعنى بها « روجون ماكار » •

– ★ ★ –

ولنحاول أن نعطى من الآن ، لمحة سريعة عن المجتمع الذى وصـفه لنا زولا ، بعـد تحقيق وتدقيق ، بكل أوتى من موهبة وعبقرية : جلس « لوى بونابارت » ، بعد انقلاب يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ على عرش الامبراطورية الثانية متخذا اسم نابليون الثالث . استقى زولا من رد فعـل هذا الأنقلاب على ريف فرنسا ومما ترتب عليه من ضعة فى الأخلاق ومن جرائم وسرقات وسحت ، موادا لروايته : « ثروة أسرة روجون »
(La fortune des Rougon)

وخرج من حجر هذه الاسرة الرجل الغشوم الذى يمثل القوة الوحشية لنظام الحكم • ويربط زولا مصير هذا الرجل بمصير نابليون الثالث ، فيصبح وزيرا ثم رئيسا لمجلس الدولة • ثم يجعل من تصرفاته المبتذلة ، وجشعه رمزا للمغامرات السياسية للأمبراطورية الثانية • وهذا مانراه فى: « صاحب السعادة اوجين روجون »
(S.E. Eugène Rougon)

وبالرغم من النصر السريع الذى أحرزه هذا الانقلاب ، تصمد المعارضة – سـواء من جانب الملكية أم الجمهورية • ويسـتخدم الامبراطور لقمعها جميع الوسائل مستندا الى نفوذ الاكليروس بصفة خاصة ، وعن طريق الرهبان ذوى الضمائر الضعيفة • وهذا مانشـهده فى : « فتح مـدينة بلاسان » (La conquête de Plassans)

وتتخذ حكومة الامبراطورية شعار « جيزو » المشهور : « اغتنموا الفرصة للاثراء » وتحـاول التملق الى طبقة البورجـوازية العليا باعتبارها طبقة ممتازة ، والاهتمام بمصالحها المادية ، ووضع مهام الدولة بين يديهـا ، وهذا هو مضـمون : « الجشع » (La curée)

واقتحم المغامرون مجـال الصـفقات المريبة والمشروعات المشينة • والبورصة هنا تلعب دورا رئيسيا ، اذ تجرى المضاربات على اشدها فترفع البعض الى قمة الغنى، وتهبط بالبعض الى حضيض الفقر بين يوم وليلة • وتسود المادة ذلك العالم • وهـذا ما يطرحه علينا زولا فى : « المـال » (L'argent) وهو أول كتاب يضعه روائى عن المال والرأسمالية .

ومع انتشـار الصناعة تبدأ طبقة العمال فى الظهور ، ثم تثور ضد الظلم الواقع عليها ، وتحلم بانبثاق بشرية جديدة ، وبوثبة البروليتاريا النابتة من أرض الآلام ، الى وضح النهار • وهـذا ما صورته لنا : « « جرمينال » (Germinal)

ولكن هذه البروليتاريا تترك نفسها لقمة سائغة فى عدو قاس لتنسى همومها وبؤسها ، الا وهى المسـكرات التى تنهك قواها وتؤول بهـا الى الانحطاط • وهذا مايبدو واضحا فى : «الحانة» •

وبينما تمتد رقعة استغلال المناجم وتتسـع ، تنتشر فى البلاد شبكات السكة الحديدية • ويمعن الكاتب فى ابراز تعارض التطور الآلى مع استمرار

الانسان فى تمسكه بعاداته وآلامه واهوائه •
وهذا ما نقرأه فى : « الدابة البشرية » •

ونشهد مولد البيوتات التجارية الضخمة بسلعها الفاخرة المكدسة على الأرفف ، وأنوارها الزاهية وسحرها المغرى للنساء ، وهذا ماصورته لنا : « سعادة السيدات » •

ثم يشرح زولا، بعد ذلك ،دور وأوجه نشاط الطبقة البورجوازية المتوسطة ، فى التطور التجارى، ذاكرا شهواتها الفظة ، ومصورا رذائلها وقسوتها على الطبقة العمالية • وهذا ماتضمنه : « غليان القدر » •

ويكشف لنا الكاتب عن الفسوق والفجور فى شخص فتاة غانية ـ تمثل « الشهوة الوثنية ـ المدمرة » ـ أفسد ظروف الحياة أخلاقها منذ سن الصبا ، فتنتقم للشعب عن طريق اتلافها ثروة كبار البورجوازيين المحتقرين فى نظرها • وهذا هو مضمون قصة : « نانا » (Nana)

وينتقل زولا من الصناعة والتجارة الى الزراعة ، فيصور لنا لوحة مؤثرة مؤلمة لطبقة القرويين بعقليتهم الحذرة ، وشراهتهم فى الربح والشح ، وازدرائهم سكان المدن • ونجد كل هذا فى : « الارض » •

وهكذا نصل الى نهاية الامبراطورية الثانية • وتتقوض أركان عرش نابليون الثالث على أثر حرب سنة ١٨٧٠ • وهذا ما يعرضه علينا زولا فى : « النكبة » (La débâcle)

ويتساءل الانسان أمام كل هذا : هل انتهى الامل ؟ وهل سينهى زولا رائعته الأدبية بلهجة تشوبها المرارة والاسى ؟ لا • لقد ذهبت الدناءة والسفالة مع ناسها ، وانفتح باب مستقبل صنعه رجال واسعو الادراك مشبعون بالانسانية ، رجال علم وعمل • وهذا ما نتبينه فى : « الدكتور بسكال » •

٣ ـ نشأة زولا وبدايته العصيبة :

كانت تعيش فى مدينة البندقية ، فى القرن الثامن عشر ، أسرة تحمل لقب زولا • وتزوج واحد منها فتاة من جزيرة كورفو • وهكذا ولد فى سنة ١٧٩٥ الطفل « فرانسوا » من أب ايطالى وأم يونانية • والتحق الفتى بمدرسة « بافيا » الحربية ، وأصبح ضابطا فى مدفعية فرقة الأمير « اوجين دى بوهارنيه » (Eugène de Beauharnais) نائب ملك ايطاليا •

ترك فرانسوا زولا سلك الجندية ، لدراسة الهندسة المدنية بجامعة « بادوفا » • والتحق بوظيفة فى السكة الحديدية بهولندا فانجلترا • ثم انخرط فى « الفرقة الأجنبية » بالجزائر • وبعد أن ظل فيها سنتين ، فتح مكتب أعمال فى مارسيليا سنة ١٨٣٣ • وحقق عدة أعمال وقدم للحكومة الفرنسية مشروعات كثيرة أهمها مشروع شق قناة تمون مدينة « أكس » (Aix) ـ بجنوب فرنسا ـ بمياه الشرب ، نظرا لأنها كانت تشكو من القحط فى فصل الصيف بصفة خاصة •

وقامت عراقيل أمام مشروع هذه القناة قبل انجازها اضطرت زولا الى التردد من وقت لآخر على باريس ، حيث تزوج فيها سنة ١٨٣٩ بفتاة فرنسية فى التاسعة عشر من عمرها تدعى « اميلى اوبير » (Emilie Aubert)

ومرت سنة وعاد زولا الى العاصمة الفرنسية ومعه عروسه • استأجر شقة فى شارع سان جوزيف • وفى هذا المسكن رزق باميل زولا فى ٢ أبريل سنة ١٨٤٠ •

عاد والد الطفل الى مدينة « اكس » فى سنة ١٨٤٣ لتنفيذ مشروع القناة ، ولكنه مات بعد أربع سنوات بذات الرئة دون انجازه ، تاركا وراءه بعض الديون •

واذا لم تعلق بمخيلة الطفل « اميل » الا ذكريات باهتة عن والده ، فانه ورث عنه موهبة الملاحظة ، فشب بناء فى كل شيء ، اما عن والدته ، فورث الاحساس بالواقع والمثابرة العنيدة •

تلقى «اميل زولا»دروسه فى مدينة«اكس»، واحتفظ دائما بحبه العميق لمقاطعة «بروفانس» (La Provence) حتى ان بعض مصنفاته الكبيرة تشبعت بجو هذه المقاطعة الهادىء المشمس • اما مدينة « اكس » ، فقد اطلق عليها فى هذه المصنفات اسم « بلاسان » ، وجعلها مهدا لاسرة « روجون » •

وكان «اميل» طالبانجيبا ذكياميالا الىالتاريخ والجغرافيا ، وهو يحب كزميله « بول سيزان » (Paul Cézanne) ـ الذى أصبح من مشاهير الرسامين ـ الطبيعة والهواء الطلق والصيد • وانكب على القراءة والمطالعة ، وأكن اعجابا كبيرا « لألفريد دى موسية » و «جورج صاند» و « فكتور هوجو » • وقرض الشعر ، وشرع فى كتابة التمثيليات والرواية التاريخية •

وفى سنة ١٨٥٨ ، عاد مع والدته الى باريس ليقيم فيها نهائيا . والتحق بآخر سنة من سنى الدراسة الثانوية بليسيه « سان لوى » ، ولكنه رسب فى « البكالوريا » • واعوزه المال ، فلم يفكر فى اعادة الامتحان • ومر الفتى بسنوات بؤس مريرة دفعته الى سكنى أحقر الدور ، والاكتفاء طيلة الاشهر بأكل الخبز المنقوع فى زيت الزيتون الذى كان يرسله اليه أحد أصدقائه من جنوب فرنسا .

ولكن هذا الضيق لم يمنعه من احلام الطموح التى تسبح به فى عالم الأدب : فهو يعتقد فى موهبته كشاعر ، شاعر ملحمى • بيد أن تجاربه الاولى فى هذا المجال بدت عسيرة • وعندما تتفتح قريحته ، يظل يكتب طيلة الليل وهو مستلق على سريره ، ملتحفا بغطاء رقيق لايدفع عنه البرد •

كان فى هذه المرحلة ، يعتز بأفكار استنكرها فيما بعد ، أنه رجل مولع بالمثالية ، يحذر العلم ويكره المادية ، يستهجن الواقعية ويرفض مذهب الحتمية ، ومن اقواله : « ماذا تعنون بكلمة واقعى؟ اتفخرون بتصوير موضوعات عارية من الشعر والخيال ! ولكن لكل شيء شعره وخياله ، من السبخ الى الزهور ! ••• ولا سبيل الى الرفعة اذا لم يجش صدر الانسان بالشعر » •

ويظل الاديب الناشيء مستئنفا طريق كفاح مزدوج : كفاح خارجى ليضمن قوت يومه ، وكفاح داخلى ليصبح كاتبا فريدا • وقبل العمل فى اصغر الوظائف فرارا من الفاقة • فالتحق مساعدا لكاتب فى الجمرك بأجر شهرى لايتعدى ٦٠ فرنكا • ولكنه لايؤدى عمله كما يجب ، فيطرد فيجد نفسه مشردا قد اضناه الجوع كما

أضناه الطموح • واخيرا ينجح فى نشر بعض قصص له فى الصحف الريفية ، دون ان يشعر بها أحد • وما كان ليرضى بالتقدير المتوسط • فكما يعتقد فى موهبته كأديب ، كان يعتقد فى عبقريته • واتخذ هذا الشاب الذى مازال يبحث عن نفسه ، شعار : « كل شيء أو لاشيء ! »

وانتظارا لرؤيته الأمور بمنظار اوضح ، ولشق طريقه وسط خضم المدارس والمذاهب ،ووصوله الى مدارج المثالية ، كان عليه ان يواجه قسوة مستلزمات الحياة • فبعد أن ترك الجمرك ، راح « يتصيد الوظائف » طيلة سنة كاملة • واخيرا ، وبناء على توصية من أحد اصدقاء والده ، التحق فى أوائل سنة ١٨٦٢ بمكتبة «هاشيت» (Hachette)

كلف فى بادىء الأمر ، بالتصدير ، ثم عين رئيسا لمكتب الدعاية على أثر تقديمه احدى قصائده لمديره الذى هنأه عليها ومنحه هذه الترقية • ولكنه بعد تأليفه بضعة قصائد أخرى ، نصحه مديره بترك الشعر • ويقول فى هذا فيما بعد : « ايقنت فعلا بضعفى كشاعر ، الا انى عزمت على استخدام الاداة التى رأيتها اكثر مسايرة لمستلزمات عصرنا : النثر » •

سمح له عمله عند هاشيت بالاتصال بعدد من اساتذة الفكر والنقد فى ذلك الوقت ، أمثال « رينان » و « سانت بوف » و « ميشليه » و « لامارتين » و « ليتريه » و « تين » ، كما سمح له بالتعرف على بعض محررى الصحف اليومية الذين اخذوا بيده فى ميدان الصحافة • وضمن ، بفضل مساعدة هؤلاء ، الكتابة المنتظمة فى جريدتى « بيتى جورنال » (Le Petit Journal) فى باريس ، و « سالو بوبليك » (Le Salut Public) بمدينة ليون • وتحسنت حالته المالية تحسنا ملموسا ، ولكنه أصبح مرهقا من كثرة الاعمال : كان الى جانب عمله الادارى واشتغاله بالصحافة ، ينقح بعض مؤلفاته القديمة التى جمعها فى كتاب فى سنة ١٨٦٤ تحت عنوان « قصص الى نينون » (Les contes à Ninon)

واصدر فى السنة التالية ، أول رواية له «اعتراف كلود » (La confession de Claude) •

ولم تنل هذه الرواية ، التى تضمنت جزءا كبيرا من تاريخ حياته ، أى نجاح • والواضح أنه تأثر فى كتابتها المشبعة بالرومنتيكية والرقة العاطفية ، بمصنف « الفريدى موسيه » المسمى « اعتراف أحد ابناء العصر » (La confesion d'un enfant du siècle) والبطل « كلود » ليس الا زولا بعينه ، والبطلة « لورانس » هى « بيرت » ، فتاة من الشعب عرفها عن طريق صديقه « سيزان » ويحول « كلود » ان ينتشل هذه الفتاة الساقطة فى براثن الرذيلة دون جدوى ، فيذهب الى مسقط رأسه ليستنشق الهواء النقى **الطهور** •

وفى سنة ١٨٦٦ ، اصدر « فيلمسان » (Villemessant) صاحب جريدة «الفيجارو» ، صحيفة أدبية باسم « الحدث» (L'Evénement) ولما كان يبحث عن الادباء الناشئين ، استدعى زولا وسأله عن الباب الذى يروق له أن يحرره • فأجاب الشاب الخجول ـ وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ـ أنه يطيب له تحرير باب الادب • وهنا ترك مكتبة هاشيت ليكرس نفسه لعمله الجديد •

وألف زولا ، بجانب نقده للكتب التى تظهر ، روايتين شعبيتين تافهتين بمعنى الكلمة هما « رغبة الميتة » (Le voeu de la mort) و « اسرار مارسيليا » (Les mystères de Marseille) كما اهتم بنقد الاعمال الفنية • وفى سلسلة من المقالات التى جمعها فيما بعد تحت عنوان « احقادى » (Mes haines) ، أيد جماعة من الفنانين الناشئين ، من ضمنهم « مانية » و « بيسارو » و « مونية » لانهم كانوا يناهضون الاساليب التقليدية ، ورفضت لجنة التحكيم المكونة من ذوى العقول الرجعية المغلقة عرض لوحاتهم فى صالون المعرض السنوى بباريس •

والهب زولا بسوطه ، الرسم التقليدى ، مطالبا الفنان بان « يصب من نفسه وقلبه على فنه ، وان يظهر شخصيته فى لوحاته بشجاعة » • على الفنان ان يبرهن ، قبل كل شيء ، على قوته وموهبته واصالته • ويقول زولا : « ان الفن ككل شيء ، انتاج بشرى وعصارة بشرية • انه جسمنا الذى يجهد نفسه فى اخراج الاعمال الجميلة • وكما أن جسمنا يتغير وفقا للمناخ والأخلاق ، فكذلك تتغير العصارة ••• لا أريد أعمالا منقولة عن نماذج الاساتذة ••• لا أريد ماليس بحياة وطباع وواقع ! فالعمل الفنى هو المستمد من ملامح الطبيعة التى يفرغ الفنان فيها طباعه عند تسجيلها بريشته » •

وجلبت مقالات زولا السخط عليه • فلقد اتهمه عدد وفير من النقاد بانه يريد الحث على « الفوضى » فى الميدان الفنى ، والقضاء على تراث « الاساتذة الكبار » وخشى « فيلمسان » الضرر على مجلته من التراشق بالنقد ، فاستدعى زولا وطلب منه ترك وظيفته مع السماح له بكتابة مقال اخير يدافع به عن وجهة نظره حتى لايظن أنه قد فصل •

وهنا نصل الى منحن هام فى حياة زولا الادبية: فهو سيحاول اقرار مذهبه بانتقاله من المثالية الى الواقعية • ومن الآن فصاعدا ، سيجعل الملاحظة والتجربه نبراسا له ، والحتمية سبيله • وعندما انعقد « مؤتمر فرنسا العلمى » هذه المرة ، بمدينة « اكس » ، فى شهر ديسمبر سنة ١٨٦٦ لمناقشة موضوع « الرواية وتاريخها » ، وجد زولا خير فرصة لعرض آرائه وأفكاره ؟ فارسل مذكرة الى المؤتمر ، أعلن فيها ان الانتاج الذهنى يترجم وسيلة الحياة لمختلف المجتمعات البشرية • وبعد أن استعرض تاريخ الرواية منذ العصورالقديمة ــ وكان أبطالها من الآلهة والدواب ــ وصل الى القرن التاسع عشر حيث أصبح ابطال الرواية من البشر•والروائى الذى اجتذبته الاساليب العلمية، يدرس هؤلاء الابطال فى الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، ويشهد تطورهم وتصرفاتهم • ويصرح زولا : « لو انى طلبت من بلزاك » فى حال حياته ان يحدد لى معنى الرواية ، لرد على دون شك قائلا : « الرواية هى وسالة فى تشريح الطبائع والاخلاق ، وتجميع لاحداث البشرية ، وفلسفة تجريبية للاهواء ، هدفها وصف حقيقة الناس والطبيعة » •

وأراد زولا تطبيق مذهب الحتمية فى دراسة الواقع الاجتماعى ، فنشر فى سنة ١٨٦٨ روايتين جديدتين هما : « تيريز راكان » (Thérèse Raquin) و « مادلين فيرا » (Madeleine Férat) تخالفان تماما أعماله السابقة ، ويمكن ربطهما

بانتاجه الضخم « روجون ماكار » : فالابطال في هاتين القصتين « أناس مثقلون بالرواسب الوراثية ويتطورون تحت تأثير البيئة » •

أثار هذان الكتابان اشمئزاز وغضب الاوساط البورجوازية • ووصفتهما بعض الصحف«بالادب المتعفن » • واخيرا وضعت « تيريز راكان » في القائمة السوداء ، وسحبت « مادلين فيرا » قدم زولا الى النيابة : وغضب لذلك ، واستنكر تدخل القضاء في الشئون الادبية •

وفي هذه الآونة ، انشغلت الاذهان بالتقدم العلمي • فكتاب « دارون » عن « أصل الانواع» لاقى نجاحا كبيرا عند ترجمته الى الفرنسية • وكذلك كتاب « كلود برنار » المسمى « مقدمة في دراسة الطب التجريبي » (Introduction) (à l'étude de la médecine expérimentale) الذي ظهر في سنة ١٨٦٦ ولم يطلع عليه زولا الا بعد اثنى عشر عاما من هذا التاريخ • وجلبت الحتمية وقوانين الوراثة وتحسين النسل ، للادباء، عناصر عمل وفهم واستيعاب لم تكن على البال • وبعد أن مزق العلم كل الحجب ، فمن الضروري أن يسير الادب على هداه،وفي نظر زولا وصحبه، أن على الروائي استبدال قلمه بمشرط التشريح، ليصبح محققا واكلينيكيا وعالما • واهتم زولا باثر البيئة على الفرد ، وبالسموم الخفية التي يحملها الدم الجاري في العروق ، والعيوب التي تنتقل من الآباء الى الابناء ، والعوامل الاجتماعية والبيولوجية • ولن يكتفي بأن يلقى بصيصا من النور على أعماق الفيزيولوجيا ، بل سيتجول في أدنى طبقات الحياة الحديثة ليصف الجماهير الشاحبة الهزيلة ، والاحياء الشعبية وما فيها من بؤس وشقاء،والطرقات المعتمة التي تتسكع فيها بائعات الهوى ، والحانات المقبضة التي تقتل مشروباتها الروحية المغشوشة جماعة العمال •

ان مؤلفات زولا ستعكس ، من الآن فصاعدا ، عصره ، كل عصره دون أن ينسى ذكر « المجتمع الراقي » المتعطش الى الفخفخة والملذات .

٤ ـ « روجون ماكار » والرواية التجريبية :

ان الرائعة التي ألفها زولا واطلق عليها اسم «روجون ماكار» تحمل عنوانا ثانويا هو :«التاريخ الطبيعي والاجتماعي لاسرة عاشت في ظل الامبراطورية الثانية » وتتكون من عشرين مجلدا كل منها له نهاية مستقلة ، ولكنها مرتبطة ببعضها البعض برباط قوي يجعل منها مجموعة واحدة ضخمة ومتجانسة • ظهر المجلد الأول منها في سنة ١٨٧١ تحت عنوان « ثروة أسرة روجون » وصدر المجلد الأخير سنة ١٨٩٣ بعنوان«الدكتور بسكال » ولا شك أن هذه الرواية العملاقة التي استطاع زولا ، بفضل موهبته وارادته وقدرته على العمل المتواصل ، ان ينتهي منها ، تتبوأ مركز الصدارة في تاريخ الرواية الفرنسية •

ويوضح زولا في المشروع الذي قدمه للناشر، الملامح الفيزيولوجية والاجتماعية للرواية التي يعتزم وضعها ، على الوجه الآتي :

١ ـ « دراسة مشاكل البيئة والوراثة على احدى الاسر ، ومتابعة الاسباب الخفية التي تعطي الاولاد المنحدرين من أب واحد ، اهواء واخلاقا متباينة من جراء الزيجات والوسائل الخاصة للحياة •

٢ ـ « دراسة عهد الامبراطورية الثانية برمته• تصوير المجتمع المعاصر في شكل اشخاص مع

ابراز ما فيه من اشرار وابطال • تصوير كامل لعهد اجتماعى باحداثه وطباعه وعاداته ••• »

أخذ زولا من كتاب « الدكتور لوكا » الضخم الصادر فى سنة ١٨٤٧ عدة أمثلة للتباين الطبيعى والخلقى ترجع الى الوراثة كالامراض العصبية والجنون والاستعداد لارتكاب الجرائم ..الخ ولكنه لجأ بالتأكيد الى كتاب « كلود برنار » عندما قدم لنا فى سنة١٨٨٠ — بعد ان نشر تسعة مجلدات من « روجون ماكار » — بيانا كاملا بمذهبه فى « الرواية التجريبية » •
(Le roman expérimental)

فلقد أعلن « كلود برنار » ان الطب — المعتبر وقتذاك فنا ، يمكن ان يتحول الى علم لو بنى على الفيزيولوجيا وخضع للوسائل القائمة على الاختيار والتجربة ، كما هو الحال فى علمى الكيمياء والطبيعة . واكتفى زولا بتطبيق أفكار « كلود برنار » عن الطب ، على الفن الروائى • ودعا الكتاب الى القيام بتجارب معملية على أشخاص رواياتهم • ويقول زولا : « يكفينى فى أغلب الاوقات ان استبدل كلمة « روائى » بكلمة « طبيب » لجعل فكرتى اكثر وضوحا وأعطيها قوة الحقيقة العلمية ••• وسأحاول أن أبرهن بدورى أنه اذا كانت الطريقة الاختبارية توصل الى معرفة الحياة الطبيعية ، فلا بد أنها توصل أيضا الى معرفة الحياة الشهوانية والفكرية » •

والرواية فى نظر زولا ، مجرد استقصاء للطبيعة والكائنات والاشياء • وعقدة الرواية تهم قليلا : فبدل ان يتخيل الروائى مغامرة ويغذيها بالمفاجأت ، ما عليه الا رصد تصرفات رجل أو جماعة بأمانة • وتصبح الرواية سجلا للاحداث ليس الا • « ان الرواية طغت على مختلف الميادين وسادت العالم بقدر ماساده العلم • فلقد تناولت كل الموضوعات • فكتبت التاريخ وتصدت للفيزيولوجيا وعلم النفس ، وصعدت الى أرقى القصائد ، ودرست المسائل الاخرى المختلفة من اقتصاد اجتماعى ودين واخلاق حتى لقد اتخذت الطبيعة كلها ميدانا تصول فيه وتجول » •

وعلى الروائى لكى يصطبغ بصبغة العلم ، الا يفرض شخصيته على الرواية وان يكون متجلدا لا يظهر احساسه ، وان يلتزم العوامل التى يتحقق منها وان يكون « ككاتب العقود لا يبدى رأيا أو ينطق حكما » • ولا يكدس الافكار أو يسير وراء الافتراضات ، وانما يقوم بالتقطيع والتشريح ، وبهذا ، « يلقن الناس علم الحياة وينشر بينهم عبر الواقع » •

ويعلن زولا على سبيل الاستنتاج قائلا : « هذه هى الرواية الواقعية اليوم • ولقد كتب لها النصر فجميع الروائيين يلجأون اليها حتى الذين حاولوا فيما سبق ، ان يقضوا عليها وهى فى مهدها • ولعمرى انها الا حدوثة الابدية : يغضب الانسان ويسخر ، ثم ينتهى به الأمر الى التقليد ••• ونحن الآن امام عصر جديد يفتح لنا أبوابه على مصاريعها » .

ويجمل بنا التنويه ان زولا طلب من الحكومة قبل ذلك بسنة ، فى كتيب عنوانه « الجمهورية والادب » (La République et la littérature) أن تحكم فى صالح اتجاه الادبى وانتاج أصدقائه حيث قال : « ان حل هذه المسألة له خطورته الجسيمة فحياة الجمهورية نفسها فى نظرى رهن بهذا

الحل • ستعيش الجمهورية أو لا تعيش وفقا لقبولها أو عدم قبولها لمذهبنا هذا • فأما أن تكون الجمهورية واقعية واما لا تكون جديرة بهذا الاسم » •

ولم يكتف زولا بجذب الجمهورية الى ركابه بل حاول ان يقنع نفسه والناس بأن فلوبير والأخوين جونكور يميلون الى مذهبه.

كان زولا يعتبر بلزاك أباه الروحى • ومع ذلك لا ينكر بأنه لم يرث عنه طموحه : فهو لا يعتزم مثله دراسة مجتمع بأكمله ، وانما مجرد أسرة • وهو يبدى أعجابه بفلوبير معتبرا قصته « مدام بوفارى » « توراة الواقعية » ، ويثنى ثناء كبيراعلى « جرمينى لا سرتو » (Germinie Lacerteux) وهى الرواية التى اهتم بها الاخوين جونكور ، بحالة هستريا أصابت خادمة ، فتدهورت صحتها ولكن لايمكن اعتبار فلوبير ولا الاخوين جونكور من مؤسسى الواقعية وانما اراد زولا ايجاد اسماء مشهورة فى أسر الأدب تعزيزا لمذهبه •

وبالرغم من أن نظرية الرواية الجديدة ـ التجريبية لم تظهر بوضوح تام الا فى سنة ١٨٨٠ فأنها انبثقت فى الحقيقة قبل سنة ١٨٧٠ بقليل مع سلسلة « روجون ماكار » • بيد أن الظروف والنقد الذى استهدفت له ، ارغمت زولا على توطيد اركانها وابرازها فى اطارها الكامل بعد مولدها بعشر سنوات • ونضيف ان عندما اطلع زولا فى سنة ١٨٧٨ على كتاب كلود برنار ، وجد فيه سلاحا ضد الميتافيزيقية والمثالية اللتين كان يمقتهما • ومن هنا سنحت له فرصة جديدة لان يوثق الرباط بين الأدب والعلم •

تطلب تطبيق مذهب زولا الرجوع الى مستندات عديدة • فلكى يؤلف العشرين مجلدا المتضمنه لرائعته الأدبية ، اضطر الى القيام بعشرين تحقيق وبحث واستقصاء ، كان عليه ان يلم بالحياة الفرنسية كلها ، وباهم ملامح المجتمع فى عهد الأمبراطورية الثانية فى مجال السياسة وميدان المال وعالم النساء المستهترات ، والاوساط الكنسية ، وبالبورجوازيين ، والفنانين والعسكريين والفلاحين والتجار والعمال • وكان يأخذ من أسرة « روجون ماكار » شخصا أو شخصين لبطولة كل رواية من رواياته ، ونادرا ما يظهرهما ثانية فى بقية سلسلته • ان جميع أبطال زولا ليس لهم وجود الا فى البيئة وللبيئة التى ينتامون اليها ولهذا اهتم زولا بجمع كل ما يتعلق بهذه البيئة ، وكان فى الوقت نفسه يطلع على بعض المؤلفات التى تتصدى لوصفها ، محاولا الاختلاط بالأشخاص الذين عاشوا فى الفترة التى تقوم عليها روايته •

ولا تستغرق كتابة أية رواية فى يده اكثر من أربعة أو خمسة اشهر • فهو يكتب فى اليوم مايوازى ثلاث صفحات مطبوعة دون شطب ودون الاهتمام بكمال الاسلوب • وكل جزء من « روجون ماكار » نشر أولا فى الصحف على شكل مسلسلات • وفى بعض الاحيان كان زولا يسمح بنشر بداية الرواية قبل ان يعطيها اللمسة الأخيرة • وغالبا ما كان ينهال عليه النقد اللاذع والاحتجاجات من بعض القراء ، والتهديد من جانب السلطات ، وربما أدى ذلك الى منع الاستمرار فى نشر القصة فى الصحيفة وانسحاب بعض المشتركين فيها • وعندما تظهر الرواية فى المكتبات ، تصبح موضع نقد لايقل عنفا عن

الانتقادات والهجمات السابقة • فكان ذلك بمثابة دعاية ممتازة أدت الى اعادة طبعها مئات المرات •

واذا نظرنا الى مؤلفات زولا فى مجموعهــا ، لاحظنا أن المستندات التى رجع اليهــا لكتابة « روجون ماكار » ، جمعت بهدف تأييد بعض آراء سياسية واجتماعية وفلسفية • لم تكن هذه الآراء فى بادىء الأمر واضحة فى كتابته ، فقد اكتفى زولا بتأكيد ولائه للجمهــورية ، وكــراهيته للامبراطورية المنهارة ، وعندما كتب « الحــانة » وجد نفسه لأول مرة أمام العالم العمالى • ومع كل، فقد رفض أن يسمى ، فى ذلك الوقت « بالكاتب الديموقراطى الاشتراكى • وبعد « الحانة » وضح تطوره وراحت كتبه تعكس كفاحه ونضاله النابع من الاحداث الجارية • وهذا الكفاح وذلك النضال هما اللذان جراه شيئا فشيئا الى الاشتراكية •

وبالجملة ، فان « روجون ماكار » ، صــورة للمجتمع الذى يعيش فيه زولا اكثر منها للمجتمع الفرنسى فى عصر الامبراطورية الثانية • ولا أدل على ذلك من أنه ، عند كتابة رواياته مثل«جرمينال» أو « الارض » أو « المال » ، كان يتقصى الأمور حوله فى الاماكن نفسها مباشرة ، مما يوضح أنه كان يقوم بأبحاثه على المجتمع المعاصر له ، وان هذه الابحاث تتعلق فى الواقع بالمشاغل السياسية القائمة فى أيامه وتحت تأثير الضغوط الواقعة عليها آنذاك •

ولا نريد هنا الدخول فى تفاصيل المجلدات العشرين لرواية « روجون ماكار » ذات الألوان المختلفة المليئة بالحياة ، والتى نرى فى ثناياها ، كما يقول زولا « قيام صورة الانسانية البهية تارة ، والمدرجة بالدماء طورا ، خلال ادوار حياتها » •

ولا شك أن « الحانة » التى ألفها ســنة **١٨٧٧** هى التى فتحت له أبواب النجاح ، وجلبت له سعة العيش ، حيث اشترى فى قرية « ميدان »، (Médan) بضـــاحية باريس ، دارا يقضى فيهــا اكثر أوقات السنة بعيدا عن الضوضاء • وجاءه الادباء الناشئون لزيارته وللتعبير عن اعجابهم به وعن تأييدهم له ، وكثيرا ما كانوا يدافعون عنه باقلامهم وبمحاضراتهم• واخيرا انضم اليه خمسة منهم لينشروا معا ، فى سنة **١٨٨٠** ، مجموعة من القصص تحت عنوان « أمسيات ميدان » (Les soirées de Médan)

وبينما كان زولا يستأنف كتابة « روجون ماكار» جمع فى سنة **١٨٨١** ، فى عدة أجزاء ، دراسات سبق له نشرها فى مختلف الصحف تأييدا لمذهبه ، محاولا ايجاد أنصار له ، نذكر منها :

١ ــ المسرح والمذهب الطبيعى •

٢ ــ مؤلفونا الدراميون •

٣ ــ وثائق أدبية •

٤ ــ الروائيون والمذهب الطبيعى •

وبمجرد الانتهاء من « روجون ماكار » ، وقبل أن يلتقط أديبنا الكبير أنفاسه ، انكب على تأليف سلسلة أخرى من الكتب أصدرها تحت عنوان عام هو : « المدن الثلاثة ، الأول سنة **١٨٩٤** عن «لورد» (Lourdes) والثانى سنة **١٨٩٦** عن «روما» (Rome) والثالث سنة **١٨٩٧** عن « باريس» (Paris)

وفى هذه الاثناء وقع حادث قسم فرنســا الى معسكرين متعاديين وانشأ الاحقاد ، واسال كثيرا من المداد ، وألقى بزولا فى خضم المعركة ، ونعنى

بهذا الحادث : « قضية دريفوس » • ففي ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ نشر زولا مقاله المشهور : « أنا أتهم » (J'accuse) وجهه الى رئيس الجمهورية ، وكان يتضمن استنكاره للاتهامات الباطلة التي وصم بها رجل بريء : « ان الحقيقة تسير ولن يوقفها أي شيء ! واليوم قد وضحت الاوضاع : فالجناة الذين لايريدون ان تأخذ العدالة مجـراها يقفون في جانب ، ويقف في الجانب الآخر القضاة المستعدون لوضع حياتهم ثمنا لتحقيق العدالة ! » •

وأيد مشـاهير الكتاب والعلماء والاسـاتذة والفنانون ورجال السياسة ، زولا كرجل منصف ألقى بنفسه في معركة خطيرة ، اسـتقبح الظلم ورفع الستار عن الدسائس الوضيعة ، وأوضـح لمواطنيه طريق الشرف • وانهالت عليه الشـتائم والسباب والتهديدات من الرجعية التي طالبت في سعر ، رأس ذلك الذي تجرأ على هتك سـتر الغدر • ووصفته « بانه رجل ملوث قذر يطعن قلب الوطن بقلمه المسنون كخنجـر القـاتل المغتال » •

وبعد ان التزم زولا جانب الثبات كعادته ، ترك هدوء داره لينزل الى الشارع ويختلط بجماهـير الشعب ويذهب الى المحكمة ، ويناضل تلبية منه لنداء ضميره • وشطب اسـمه من قائمة الذين منحتهم الدولة وسام الشرف ، وحكم عليه بالسجن لمدة سنة وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ فرنك • أقنعـه أصدقاؤه بالتوجه الى انجلترا ، فظل فيها من ١٨ يوليو سنة ١٨٩٨ الى ٥ يونيو سنة ١٨٩٩ ، ثم عاد الى فرنسا على أثر اعلان قانون العفو العام •

كان زولا قد أنهى « أنا اتهم » بهـذه الجملة : « ان العمل الذي أقوم به ليس الا وسيلة ثورية لسرعة تفجير الحقيقة والعـدالة • » والآن نراه منجذبا الى « القـوة الاجتماعية والخلقية للحياة الحديثة » ، كما نراه مهتما « باشتراك الافراد في الاحداث الجارية • » وسبق ان شوهد هذا التطور في « المدن الثلاثة » • ثم نما وبرزت خطوطه في سلسلة جديدة من كتبه اطلق عليها اسم«الاناجيل الأربعـة » وهي مكونة من « الخصـوبة (Fécondité) حيث يمجد الكاتب الأسرة ، و «العمل» (Travail) ويتناول فيه تحرير العمال والحقيقة (Vérité) حيث يعلن هـزيمة الباطل والكذب • وحال الموت دون كتابة انجيله الرابع « العدالة » (Justice) الذي كان يعده ليكون بمثابة مصالحة للشعوب ومدعاة للرخاء الجماعي •

وبعد أن دافع زولا عن رجل ، واستهجن الظلم الذي هبط عليه ، رأى من واجبه أن يسـاند الجماهير المظلومة ، ويخلصها من نير العبودية • وراح يبحث عن معنى الحياة بالنسبة للمجتمع كله، فخص بالاختيار الثوريين لثقته بأنهم سيصبحون رجال المستقبل ، وأهمل المحافظين لاعتقاده بأنهـم رجال الماضي • وقال في آخر مذكراته التي تعتبر وثيقة أدبية وسياسية : « يجب علي أن أصرح في حزم ، بأن البورجوازية قد انتهى دورها ، وانها انحازت الى الرجعية لتحتفظ بسلطانها وثرائها ، وان كل آمال المستقبل كامنة في الشعب » •

وفي ٢٨ سـبتمبر سنة ١٩٠٢ ، مات زولا في شقته بباريس مختنقا بثاني أكسيد الكربون الذي تصاعد من مدخنة كانت في حالة سيئة • واشترك في جنازة هذا الرجل الذي دافع عن الشـعب ،

جمع غفير من الناس بلغ عددهم اكثر من ٠٠٠ر١٠ نسمة أوصلوه الى مقره الأخير •

وفي ٤ يونيو سنة ١٩٠٨ ، وافق البرلمان على نقل رفاته الى مقابر الخالدين في حفل شهده رئيس الجمهورية .

ويرقد زولا منذ ذلك التاريخ بين الرجال الذين نالوا من الأمة الوفية أحسن تقدير ، وتركوا لها خير ذكرى •

٥ - جرمينال :

في الفترة التي اتخذها زولا مدارا لاحداث روايته - وهي تسبق سنة ١٨٧٠ - كانت مختلف مقاطعات فرنسا مسرحا للاضرابات • وقامت اضرابات جديدة اشتدت وطأتها في الشمال وفي « بادي كاليه (Pas-de-Calais) فلقد أضرب عمال المناجم في مقاطعة انزان (Anzin) يوم ٢١ من فبراير سنة ١٨٨٤ ، وظلوا مضربين زهاء شهرين • وانتهز زولا هذه الفرصة ليجعل من نفسه سكرتيرا لصديقه النائب الراديكالي «الفريد جيار » (Alfred Giard) ليصحبه في زيارته لهذه المنطقة • وشهد اجتماعات العمال ، وجلس على مقاهيهم ، واتخذ من بعضهم مثالا لاشخاص الرواية التي اعتزم كتابتها • ونظرا لأنه شهد بعينيه ذلك الاضراب ، فقد استطاع ان يرجع به الى المرحلة التي اختارها لفصول روايته •

كان المنجم ومنشآته أهم شيء لديه ، ولذلك طلب الاذن بالتوغل في ممراته وسراديبه ليطلع على كيفية سير العمل المضني في جوفه • ولم يكتف بذلك ، بل أراد الوقوف على حياة العمال اليومية ، فزار مساكنهم واطلع على قوائم أجورهم •وامعانا منه في أمانة البحث ، راح يدرس نزاعهم الذي استمر قائما من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٨٤ كما اطلع على جريدة المحاكم (Gazette des Tribunaux) ليلم بأسباب المحاكمات التي صدرت ضد المضربين، وبسوء التفاهم والتحرش اللذين أديا الى قيام الاضراب •

وعندما عاد الى باريس، كتب الى صديقه الروائي السويسري « ادوار رود » (Edouard Rod) « لدي جميع المستندات الكفيلة بكتابة قصة اشتراكية » • والواقع ان « جرمينال » ليست قصة اشتراكية ، وانما هي قصة تتعلق بالشعب ، جعل فيها زولا من المنجم ومن جمهور العمال ومن الاضراب ، مادة أدبية • ولقد ترك ما اعتاده الروائيون من زخارف ، واطلق العنان لشعوره المشبع بالاشمئزاز من الحقيقة المرة التي رآها بعينيه • أنه يشبه المنجم بغول متوحش يسمم الاجواء بالفحم الذي يقذفه من جوفه ، ويجعل النبات هشيما ، ويبتلع في بطنه الناس والدواب، ويحجب عنهم نور النهار ، ويمتص قواهم ، ويمزق رئاتهم ، ويفكك أوصالهم ، ويخنقهم ويطحنهم ويحرقهم •

وفكر زولا في اكثر من عشرين عنوانا لهذه الرواية ، ثم اختار اسم اليوم الذي يسجل أحداث ١٢ جرمينال (١) من السنة الثالثة للثورة وهو اليوم الذي ثار فيه شعب باريس الجائع على « الجمعية الثورية » التي خلفت « الجمعية التشريعية » ، ونادت بالجمهورية وباعدام الملك لويس السادس عشر •

---

(١) غيرت الثورة الفرنسية أسماء أيام الأسبوع كما غيرت أسماء الشهور وشهر جرمينال هو سابع شهر في سنة الثورة ويبدأ في ٢١ مارس وينتهي في ٢٠ ابريل .

ويقول اميل زولا فى اشارة لأهم اجزاء مؤلفه : « ان هذه القصة هى ثورة أصحاب الاجور ، وضربة للمجتمع الذى تفككت عراه حينا • وكفاح رأس المال والعمل • وهنا تظهر أهمية الكتاب : فقد أردته متوقعا للمستقبل ، وضمنته المشكلة التى ستكون أهم قضية فى القرن العشرين •• » •

وأرسل اميل زولا مذكرة الى صحيفة « جيل بلاس » (Gil Blas) عندما بدأت تنشر روايته المتسلسلة فى نوفمبر سنة ١٨٨٤ ، جاء فيها : «ان المؤلف سيضفى على هذه الرواية صبغة تقرب من صبغة قصته المسماة «بالحانة». أنه يريد ان يجعل منها دراسة جديدة عن الشعب يلمس فيها بطريقة مباشرة القضية الاجتماعية ••• وتدور مأساة الرواية حول اضراب فى منجم فحم ، يهيج بداخله حوالى ثمانين شخصا لكل منهم ملامحة المميزة ، وتدور الاحداث تارة فى جوف الارض ، وطورا فى القرية، يتخلل كل هذا وصف وتحليل لاخلاق وطباع العمال ، وأعمالهم وشجارهم وغضب الآباء وضياع البنات ، كل ذلك يتتابع حتى تقع الكارثة المحتومة » •

ويجدر بنا التنويه هنا بان سقوط العامل وانحطاطه فى قصة « الحانة » يرجع الى أسباب شخصية وخلقية • أما فى «جرمينال» فيرجع الى النظام الاقتصادى والاجتماعى • و لم يفت زولا هذا الفارق على كل حال . فلقد فهم الكاتب الفرنسى من بعض النقد الذى انهال على «الحانة» ، ان الاهتمام بالواقع وحده لا يكفى ، بل لا بد أيضا من الاهتمام بالجانب السياسى ، وهذا ما التزمه زولا فى « جرمينال » ، اذ فهم ان اختيار الموضوع يتطلب منه اتخاذ موقف صريح حياله ، وأنه لا يمكن وصف اخلاق الطبقة البروليتارية دون التصدى للمتناقضات الاجتماعية •

لذلك نراه يرد على الذين عابوا عليه ، خطأ ، انه جاء فى « جرمينال » بشرذمة من السكارى وذووى الاخلاق المنحلة ، قائلا : « يمكن تخفيف ويلات البؤس فى اليوم الذى نحس فيه بآلام البؤساء وصغارهم. لقد اتهمت بتعمدى هجر الكلام والكذب على أناس مساكين ذرفت الدمع عليهم • واستطيع ان أرد على كل اتهام بمستند • لم يريدون ان أفترى على البؤساء؟ ليس لى الا رغبة واحدة : أظهارهم كما حولهم مجتمعنا ، واجعل قلوب الناس ترق لحالهم. نعم أريدها صرخة عدل مدوية تجعل فرنسا تكف عن ترك قبضة من المشتغلين بالسياسة فى نهشها ، لتهتم بصحة أبنائها وثرائهم » •

وبطل « جرمينال » هو جمهور عمال المناجم الذين يملأون الكتاب بشكاياتهم وصخبهم وحشرجتهم وزمجرتهم • وتحقيقات زولا تقوم على الاحداث وحدها • وروايته تصف بالتفصيل ظروف العمل والاجور الضعيفة التى يتقاضاها العمال ، بينما الاشغال التى يؤدونها تعتبر فى منتهى الخطورة: فهم يكدون فى جو حار خانق، على ركبهم وبطونهم وظهورهم ، والمياه تتسرب من جدران الممرات الضيقة ، حتى شبههم زولا « بالبرغوث الموضوع بين صفحتى كتاب ، المهدد بالموت دكا أن أطبق عليه » •

ويمعن الكاتب فى اظهار انكار الذات وروح التضحية عند عمال المناجم ، وتعاطفهم ونجدتهم لبعضهم البعض عند وقوع كارثة ، ولو أدى انقاذهم اخوانهم الى فقدان حياتهم • ولا غرو ، فآلامهم

وبؤسهم والخطر المحدق بهم ، كل هذه العوامل تربطهم وتقربهم من بعضهم البعض .

والصورة المؤثرة حقا في الكتاب ، هي صورة امرأةمن الشعب تدعى «لاماهود» (La Maheude) عملت مدة طويلة في جر عربات الفحم داخل المنجم ، ثم تركته على أثر زواجها وأنجابها سبعة أولاد • ونراها تهتم بعشها بعناية وتقيم أود صغارها بأجر ضئيل • وبعد أن استسلمت حينا لهذا المصير ، سخطت على حياة البؤس والآلم والظلم ، ثم ثارت وانضمت الى المناضلين من العمال ، فرفعت من معنوية المضربين ، وحثت زوجها ـ « ماهو » (Maheu) ـ على المقاومة • وشاءت الاقدار ان يقتل الزوج الذى اتخذه زملاؤه زعيما لهم ، برصاص الشرطة ، فتبقى الارملة وحيدة بجوار أولادها الجياع ، وجدهم الهرم •

وعندما ينتهى الاضراب ، تجد الارملة نفسها مضطرة الى العمل فى جوف المنجم بدل زوجها المتوفى ـ كأية دابة ـ طيلة عشر ساعات يوميا • والادهى من ذلك ، اضطرارها الى دفع أولادها الى العمل فى الشركة الجشعة المستغلة للمنجم • ولكن اذا كان القدر قد تغلب على هذه العاملة ، فانها واثقة من شىء واحد : قرب ساعة الانتقام ، وعود الكرامة الى الشعب المهضوم حقه • وهكذا يهوى ، على حد قول زولا ، « الصنم المخيف المختفى وراء هيكل المذبح » ، والذى طالما امتص دماء العمال » •

وبطل القصة شاب يدعى « اتيين لنتييه » (Etienne Lantier) فى الواحد والعشرين من عمره ، ذكي وطموح ، يعرف كيف يخاطب العمال وكيف يؤثر عليهم ، أو على الاقل ، حتى وقوع « الكارثة » • لقد تمتع بنشوة شعبيته ـ وان كانت فى خطواتها الاولى ـ الى حد جعلته يتخيل أنه « يرى نفسه فوق منصة الخطابة منتصرا ، يحف من حوله الشعب الذى هو واحد من أفراده » • ولكن هذا العصامى يضيع فى متاهات النظم الاشتراكية • ثم راح يحلم ـ انتظارا لليوم الذى يؤم فيه زملاءه ـ بتوطيد العدل : « ودارت بخلده اسئلة غامضة : ـ ماهو سبب بؤس بعض الناس وثراء البعض الآخر ؟ لماذا يعيش الفقراء على فتات موائد الاغنياء ، دون أمل فى أن يصبحوا أثرياء مثلهم ؟ وشعر لاول مرة بجهله ، وانتابه الخجل المشوب بالامل : أنه لايعرف شيئا ولا يجرأ على الكلام فى الأمور التى تهمه ، وهى المساواة بين الناس والتوزيع العادل لثروة الارض • وانكب على الدراسة فى غير نظام كما هى عادة الجهلاء المولعين بالعلوم والفنون ••• واقتنى الكتب التى أدت قراءتها ، دون مرشد حكيم ، الى افراطه فى حماسه » •

ويذكر لنا زولا ، بجوار « أيتين لنتييه » ، ثلاثة زعماء للحركة العمالية لهم ادوارهم المهمة فى الرواية ، وهم :

« راسنور » (Rasseneur) عامل منجم سابق ، أصبح صاحب مقهى ، ومن أنصار تسوية المنازعات عن طريق المباحثات ، ولا يعتقد فى فعالية الاضراب ، « وسوفارين » (Souvarine) فوضوى روسى يعمل ميكانيكيا فى منجم «لوفورو» Le Vareux آثر ترك ثروته للاندماج فى الشعب ، وهو من أنصار استعمال العنف من أجل فتح الطريق امام الثورة ، وأخيرا « بلوشار » (Pluchart) ميكانيكى بمدينة « ليل » (Lille)

اعتاد مراسلة صديقه « اتيين لنتييه » ، اشـتراكى النزعة ، ولكنه كثير الاهتمام بمظهره الخـارجي وبنجاحه فى ميدان الخطابة ، ولا ندرى هل مجال السياسة اجتذبه بدافع الطموح ، أم بدافع العقيدة .

واذا كان زولا قد خصص مكانا ضئيلا للعوامل السياسية فى روايته ، فانه تعـرض بدقة وافية للمشاكل الاقتصادية . ان انخفاض الاجور الذى سيسبب الاضراب ، نشأ من الازمة التى نجم عنها اغلاق بعض المصانع . وهكذا تعطلت الصـناعة وتوقفت طلبات استيراد الفحم .

لم يؤثر الاضراب والازمة على العمال فحسب ، بل اثر أيضا على الرأسماليين المتواضعين ، وامتصت الشركة الكبيرة الشركات الصغيرة ، وأدى تركيز رأس المال الى طريق الاحتكارات والرابطـات الاقتصادية فى عصر الامبريالية ...

ويجدر بنا الآن ان نتناول موضوع الرواية : حاولت الشركة المسـتغلة لمناجم « مونسـو » (Montsou). على اثر أزمـة اقتصـادية ، خفض مصاريف الانتاج مما ادى الى زيادة البطالة يوما بعد يوم ، واستفحال الفاقة فى عـدة مناجـم فحم .

ويمر « اتيين لنتييه » ـ وهو ميكانيكى يبحث عن عمل ـ بجوار أحد مناجم الفحم يطلق عليه اسم « لوفورو » . وتصادف ان توفيت احـدى العاملات المكلفات بجر عربات الفحم ، فعينه «ماهو» ضمن العمال التابعين له . أنه عمل شاق متعب ، ونظرا لآن عملية جر عربات الفحم تقوم بها عادة الفتيات ، فلم ينظر العمال القائمون بتكسير صخور الفحم الى الفتى المستجد، نظرة رضا: فهم يريدون منه ان يجر اكبر عدد من تلك العـربات ، لان اجورهم متعلقة بكميات الفحم الذى يكسرونه .

وكثيرا ما يتراشق العمال فى جوف المنجم أو على سطحه بتهم الكسل والخمول ، بل وبالسرقة ، وقد ينتهى بهم الأمر ، فى بعض الاحيان ، بدافع الحرمان ، الى التماسك بالايدى . وكل هـذا الشجار يحدث ويسوى فى مقهى « راسـنور » المواجه للمنجم .

وحاول « اتيين » الاتصـال بأعضـاء الرابطة الدولية للعمال ليضم الى صـفه أعضـاء جدد ، وينشىء فرعا للرابطة فى « مونسو » . وداعبه حلم كبير : « ازالة فوارق الحدود ونهضة عمال العالم أجمع واتحادهم لضمان الخبز لكل كادح ... » وعارضه « سوفارين » الفوضوى : الافضل تدمير كل شيء وتحطيم كل شيء ، « وعندما لا يبقى أى اثر من هذا العالم الفاسد ، فربما يبزغ عـالم أفضل » .

ويطأ الاستغلال العمـال بمنسمه بقسـوة متزايدة . وتأثرت الشركة بالازمة الاقتصادية ، وادعت عدم كفاية الوطائد الخشبية التى تسند جدران المنجم ، بقصد تخفيض ثمن عبوءة عربات نقل الفحم ومضاعفة المخالفات والجزاءات ، وعم البؤس العمال ، فذهب وفد منهم الى ادارة المنجم يرأسه « ماهو » ـ الذى يتمتع باحترام مرؤسيه وزملائه ، ليعلن للمدير :

« جئنا لنقول لك انه اذا كان لابد من الموت، فالافضل ان نموت ونحن مستريحون من عناء العمل لقد تركنـا جوف المنجم ولن نعود اليه الا اذا استجابت الشركة لمطالبنا . فالشركة تريد خفض قيمة عبوءة عربات نقل الفحم ، وترغب فى دفع

تسن الوطائد على حدة ، ونحن نريد ان تظل الامور على ما كانت عليه ، مع زيادة خمس سنتيمات على قيمة كل عبوءة فحم ••• وعليك الآن ان تثبت انك فعلا فى جانب العدل وصالح العمل » •

وأمام رفض الشركة استجابة هذه المطالب ، تقرر الاضراب • وحاول « اتيين » توحيد صفوف الحركة ، ولكنه اصطدم « بسوفارين » الفوضوى ، « وراسنور » صاحب المقهى ، وصاح « اتيين » فى وجه هذا الاخير قائلا :

ـ « ماذا دهاك ؟ لم تتجه الى البورجوازيين ؟ ألم تقل انت بنفسك انه لابد لنا ان نثور على هذه الاوضاع ؟

فرد عليه « راسنور » :

ـ « نعم قلته • واذا ثرنا فسترى انى لست جبانا ••• ولكنى ارفض ان اكون مع أولئك الذين يزكون نار الفوضى طمعا فى الحصول على مركز ! •

فقال « اتيين » :

ـ هل أنت تقصدنى بهذا ؟ انك تغار منى لاشك !

فأجابه « راسنور » :

ـ أغار ، من أى شيء ؟ أنا لا أدعى العظمة ، ولا أبحث عن انشاء فرع لرابطة العمال فى « مونسو » لاضطلع بوظيفة الامانة العامة فيه » •

واشتدت الفاقة : « راحت أسر العمال تستسلم للموت من شدة البؤس • وأرسلت لهم رابطة العمال الدولية أربعة آلاف فرنك من لندن ، ولكن هذا المبلغ لم يكفهم خبزا لمدة ثلاثة أيام • ثم انقطع المورد عنهم ، وثبطت همتهم أمام الامل الضائع • على من يتكلون الآن طالما ان اخوانهم قد تركوهم فى محنتهم ؟ انهم يشعرون بالضياع وسط قر الشتاء وهم فى عزلة عن العالم » •

وتغلغل الغيظ فى صدور العمال وصدور نسائهم « لما أصابهم من ظلم وعسف جيلا بعد جيل خلال مائة عام قضوها فى كد وجوع » ، فقرروا ان يعملوا عمل الوحوش الضارية ، طالما أنهم يطاردون كالذئاب • وعقدوا اجتماعا كبيرا فى احدى الغابات واستمعوا لهذه الكلمات التى قالها « اتيين » :

« ان نظام الاجور ليس الا شكلا جديدا للعبودية • يجب أن يكون المنجم للعامل ، كما ان البحر للصياد ، والارض للفلاح ••• هل تسمعون ! ان المنجم ملككم جميعا لانكم دفعتم ثمنه طيلة قرن من الزمن بالدماء والبؤس » .

ويوشك الاجتماع ان ينتهى ، وتنتشى هذه الحشود التى طال استعبادها ، من هذه الخطب الرنانة ، وتستعد للانقضاض •

وهنا يمزج زولا ، كفنان ساحر ، صفاء الغابة الهادىء بالغضب الذى يغلى فى صدور العمال : « وتعاقب الخطباء فوق جذع شجرة اتخذوها منصة ، وأدلى كل منهم باقتراحات قاسية . انه جنون العقيدة وفراغ صبر جماعة دينية تعبت من انتظار وقوع المعجزة ، فقررت أن تستحثها • لقد امتلأت هذه الرءوس الخاوية من الجوع ، بثورة السخط ، واشتعلت غيظا وراحت تحلم بارتكاب الحرائق واسالة الدماء من أجل

مجد تنبثق منه سعادة تعم العالم • وكان القمر ينشر ضوءه على تلك الحشود الآدمية ، وامتص سكون الغابة الكثيفة ، صيحة الابادة هذه • وكان لا يسمع الا انين الحشائش وهى توطأ بالاقدام ، بينما تختال اشجار الزان بأوراقها الرقيقة السوداء تحت قبة السماء البيضاء،دون ان تحس بالمخلوقات البئيسة المضطربة بجوارها او تنصت لها » •

وانسابت جماهير العمال تعدو خلال الحقول والمناجم وهى تصيح : « الخبز ! الخبز ! الخبز ! » وانفلت زمام الاحقاد المتراكمة جيلا بعد جيل ، « فقام اكثر من ألفى وخمسمائة عامل بتحطيم وتدمير كل مايصادفونه فى طريقهم ، وهم مندفعون كالطوفان » • واتجه المضربون صوب آبار المناجم التى لايزال العمل قائما فيها ، وراحوا يقطعون الحبال ، ويشتمون العمال الذين هبطوا الى اجوافها رغم أوامر الاضراب التى صدرت اليهم، ويسوقونهم الى خارجها ، ويكسرون زجاج مقر الادارة ، ويحطمون الآلات والاجهزة•وانجرف سيل هذه الحشود الغاضبة يضرب جدران الدور التى انكمش فيها البورجوازيون الاثرياء وقد اصفرت وجوههم من شدة الهلع : « وخرجت جماهير النساء حاسرات الرءوس ، منتفشات الشعر ، يظهر لحمهن من ثنايا جلابيبهن البالية الممزقة،لحم الاناث اللائى تعبن من الحمل وأنجاب الاولاد ليتضوروا جوعا • ورفع بعضهن أطفالهن ورحن يهززنهم كما يهز الناعى أعلام الحداد ، أو المقاتل أعلام النزال ••• ثم تدفقت بعدهن حشود العمال من مختلف الفئات ، كجلاميد الصخور ، فأصبحوا جميعا كتلة بشرية واحدة ، يتعذر على الانسان ان يميز فيها السراويل الباهتة من القمصان الصوفية المهلهلة • وكانت أعينهم محمرة ، وأفواههم المسودة تصدح بنشيد « المارسييز » الذى تضيع نغمته بين زمجرة الغضب ووقع الاقدام على الارض الصلبة » •

ورأت الشركة الانتظار ، حتى يرغم الجوع المضربين ، على العود الى العمل • وتضاعفت الفاقة بين العمال ، ولكن عزيمتهم لم تخر • واستعانت الادارة بالأيدى العاملة من الخارج ، وقام الجنود بالمحافظة عليهم ، ولكن المضربين حاصروا المنجم ، وارسلوا من حناجرهم كلمات التوبيخ نحو الجنود .

وعندما ألقى القبض على ثلاثة من العمال المتظاهرين ، ثار الباقون وبدأوا يلقون الحجارة على رجال الأمن الذين فتحوا نيران أسلحتهم ، فقتلوا أربعة عشر عاملا من بينهم ثلاث نساء وطفلين ، وجرحوا خمسة وعشرين آخرين •

ان هذه المأساة بعثت فى أهالى « مونسو » موجة من السخط • وطلبت الحكومة الامبراطورية من الشركة كتم الأمر وانهاء الاضراب • وقامت الادارة بمناورة ، حيث طلبت من المضربين العود أولا الى العمل ريثما تدرس مطالبهم • وانهزم العمالآخر الأمر وعادوا الى المنجم مطأطىء الرأس اما « سوفارين » الفوضوى ، فانه استأنف الكفاح ، ولكن على طريقته الخاصة ، فدمر وطائد آبار المنجم والعمال فى جوفه • وحدثت الكارثة حيث تدفقت المياه داخل سراديب المنجم ، وأصيب « اتيين » وظل ستة أسابيع راقدا فى المستشفى ، ترك بعدها الخدمة ليذهب الى باريس ويلحق بصديقه « بلوشار » •

وتقابل وهو فى طريقه الى القطار مع بعض العمال وهم يسيرون الى مقر عملهم صامتين ،

صفر الوجوه ، كاسفى البال : « وبعد اضراب دام شهرين ونصف ، وبعد ان غلبهم الجوع ، عادوا الى المنجم مرغمين ، راضين بتعريفة أعمال النجارة وبالاجر المخفض البغيض فى نظرهم لانه ملوث بدماء زملائهم ، وعودهم الى العمل قبل استجابة مطالبهم ، جعلهم يتألمون لحنث يمينهم ، وكانت مرارة هذا الحنث تشق حلوقهم • وبدأ العمل ينشط من جديد فى كل مكان ••• كان قطيع العمال يسير فى ضباب الصباح ، وعلى طول الطرق الجوفية المظلمة ، منكسر النفس كما تسير البهائم الى المذبح • كانوا يرتعدون من شدة البرد لرقة ملابسهم المصنوعة من التيل ، ويضعون أيديهم متشابكة على صدورهم ، وقد انحنت ظهورهم •• ولكن هذه الجماهير ، بل هذه الظلال الصامتة المشدودة ابصارها الى الارض ، عادت الى العمل وهى تعض على اسنانها من الغضب ، ويستعر قلبها من الحقد ، مستسلمة لنداء بطونها الخاوية » •

ويصبح «اتيين لنتييه» ، بعد أن حنكته التجارب فى جوف المنجم ، مناضلا ثائرا على الاوضاع الظالمة •

وينتهى الكتاب بمشهد عظيم : صعود الطبقة العمالية منتصرة مطمئنة على مستقبلها المنير : « وترعرع الرجال فى شكل جيش فاحم السواد يوغر الانتقام صدره ، وراح يشتد رويدا رويدا فى اخاديد المناجم تاركا للاجيال القادمة قطف ثمرة جهوده التى بدأت براعمها تشرق الأرض» •

ولا يسعنا فى ختام هذه الدراسة الا أن نؤكد ان كتاب زولا قد فاقه ، او بالأحرى لقد ترك زولا كتابه يتفوق عليه • وما يقوله عن « جرمينال » بانه أراد من ورائها « ان يستدر العطف والرأفة على طبقة العمال الكادحة البائسة ، لا ان يجعل منها عملا ينبض بالثورة » ، لا يمت فى نظرنا الى الحقيقة بأية حال ، ذلك لأن عاصفة الثورة الشعبية المطالبة بالعدالة تهب فى الواقع من ثنايا « جرمينال » ، رائعة زولا الأدبية •

أحمد رشاد